

## نظرة تحليلية في الفصول و الغايات لأبي العلاء المعري

الدكتور علي كنجيان خناري\*

الدكتور عبدالأحد غيبي\*\*

فرشيد فرجزاده\*\*\*

### المخلص

لقد ترك المعري عدداً ملحوظاً من المؤلفات والتصنيفات. من أهم آثاره المنثورة الذي يعتبر مصدراً قيماً في تاريخ الأدب العربي هو الفصول والغايات. هذه المقالة سنتلقي الضوء على هذا الكتاب من ناحية الشكل والمضمون: الجرس والإيقاع والمفردات والخيال ونظم الجمل وطريقة التعبير والتصميم والبناء هي الموضوعات التي ستبحث عنها هذه المقالة بالتطرق إلى كتاب الفصول والغايات من حيث الشكل. وتسبيح العاقل وتمجيده وتسبيح غير العاقل هما الموضوعان الرئيسيان يشكّلان اللذان محور البحث عن هذا الكتاب من حيث المضمون. وبما أنّ بعض الناقدين يعتقدون أنّ كتاب الفصول والغايات قد كتبه المعري معارضة لكلام الله فهذه المقالة تنوّد عن الكاتب بتقديم نموذج وأدلة تزيل غبار التهمة من ساحة الكتاب وكاتبه.

**كلمات مفتاحية:** الأدب العربي، أبو العلاء المعري، الفصول والغايات.

\* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العلامة الطباطبائي، طهران.

\*\* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة للشهيد المدني آذربيجان، إيران.

\*\*\* ماجستير في اللغة العربية وآدابها.

## المقدمة

إنّ كتاب الفصول والغايات من أهم كتب أبي العلاء النثرية إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. "وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف، لأنّ فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً".<sup>١</sup>

"وهو منقسم إلى ثمانية و عشرين فصلاً وكلّ فصل لحرف ينقسم إلى فقرٍ، وقد التزم أبو العلاء في كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها في حرفين أو أكثر والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ويكثر في هذا الكتاب من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم".<sup>٢</sup>، من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والتاريخ والحديث والفقّه والفلك وعلم النجوم.

ينقسم العلماء والمحققون الذين أدلوا بآرائهم عن هذا الكتاب إلى أقسام: فريق منهم لم يروا الكتاب ولم يقرأوه، بل سمعوا عنه فقط، وفريق قرأوه ولم يفتنوا لما قصده المعري، وفريق آخر من الحُساد أسأوا الظنّ بالمعري وطعنوا بكتابه بالمعارضة للقرآن بسبب تشاؤم صاحبه وزندقته ولعله بسبب أنّه سمّي الكتاب "الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات"<sup>٣</sup> ويعتقد بعضهم أن هذا الكتاب ألفه المعري معارضةً للقرآن وتشبيهاً بنظمه. ومن المؤرخين وأصحاب التراجم الذين اتهموا المعري بمعارضته للقرآن هم حاجي خليفة (١٠١٧-١٠٦٨هـ) وشمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) وأبو الفرج ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) و...

يرى البعض أنّه قيل في تمجيد الله عزّ وجلّ. يدلي الدكتور طه حسين برأيه في عدم معارضة المعري للقرآن الكريم قائلاً: "لو أردنا بمعارضة المعري للقرآن تأثره به وسعيه

٤- جمع من المؤلفين، تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه الرواة للقطبي، ص ٣٨.

٢- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام، ص ٣٣٠.

٣- المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

لتقليده به عندئذ هو عارضه لأنّ القرآن نموذج عالٍ للفنّ الأدبي الذي أعجب المعريّ فتأثّر به.<sup>١</sup> ويقول في موضع آخر من كتابه: "لا أحسب أن يكون قد فكر أبو العلاء في مثل هذا الموضوع لأنّه كان أخشع من أن يرنو إلى هذه المرحلة وأظن من أن يقوم بعملٍ لا سبيل إليه."<sup>٢</sup> ويقول شوقي ضيف "هذا كتاب جميعها وعظ... قصد به إلى تمجيد الله العلي الأعلى" كما يرى أن أبا العلاء لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه... والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى".<sup>٣</sup>

يستهدف هذا البحث دراسة كتاب الفصول والغايات من ناحية التصميم والبناء. ويبدأ بالتطرق الموجز إلى حياة أبي العلاء صاحب هذا الكتاب ثمّ يدرس الكتاب من ناحية الشكل فهنا يتكرس الكلام على الجرس والإيقاع ثمّ يذكر أنّ الجرس والإيقاع هما حصيلتا السجع السائد على الكتاب بنوعيه من المطرّف والمتوازي.

هذا البحث يشير إلى مبدأ الدقة لدى المعري الذي حثّه على اختيار أدقّ المفردات لأداء ما يختلج فيه من المعاني ثمّ يعن النظر في الكتاب من منظار استخدام المعري للمفردات الغريبة غير المبتذلة ثم يسوق الكلام إلى أنّه قد اعتمد الجدّ عندما أراد أن يجد طريقة للتعبير عن معانيه وأفكاره ويسعى دائماً أن يتفادى الهزل في كلامه.

وثمة أفكار تلعب دور المصمّم والبناء في كتابه وهي عبارة عن الاستغفار وذكر الله وذكر الموت والإشارة إلى الذنوب والإشارة إلى قدرة الله تبارك وتعالى والتقوى والحث عليها والحديث عن الدنيا.

<sup>١</sup> - طه حسين، كفت وشنود فلسفي در زندان أبو العلاء معري، ترجمه حسين خديوجم (ترجمة مع أبي العلاء في سجنه)، ص ٢٦٥.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

<sup>٣</sup> - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام، ص ٣٢٩.

وينتقل الكلام في المقالة بعد هذه البحوث إلى مضمون الفصول والغايات الذي ينقسم إلى قسمين من تسبيح العاقل وتمجيده وتسبيح غير العاقل وتمجيده. و في القسم الأول يسبّح المعريّ ربّه على لسان شخص آخر وهو يُقرّ بعظمته جلّ و علا وفي القسم الأخير يخصّ كلامه بالحديث عن تسبيح الله وتمجيده على لسان غير الإنسان من الجماد والنبات والحيوان.

والهدف الآخر الذي يتبعه هذا البحث هو أنه يريد أن يثبت أنّ المعري لم يقصد إلى معارضة القرآن الكريم بكتابه هذا لأنه يحفل بذكر الله وتسبيحه على لسان العاقل وغير العاقل وكيف يسعى وراء هذه النوايا من ملء قلبه إيماناً و يقيناً ولذلك يصور لنا مشهداً رائعاً يمثل به الإنسان وغير الإنسان دور المُسيّح والمُجدّ لمن يسبح له ما في السموات وما في الأرض.

#### ١- نظرة عابرة إلى حياة أبي العلاء المعريّ

"هو أحمد بن عبدا... بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داوود بن المطهر بن زياد ربيعة... بن انور بن اسحاق بن أرقم النعمان بن عدي بن غطفان بن عمر بن بريح بن جذيمة بن تيم... بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التنوخي المعري."<sup>١</sup> سمّاه والده أحمد لكنه كرهه ورأى أنّ من الأفضل أن يكون اشتقاق اسمه من الذمّ بدلاً من الحمد. حيث يقول:

و أحمد سمّاني كبيرٍ قلمًا      فَعَلْتُ سِوَى مَا اسْتَحَقَّ بِهِ الذَّمَّ.<sup>٢</sup>

قد ولد المعري بمعرّة النعمان وبعد سنوات غادر مسقط رأسه إلى بغداد طلباً للعلم لكنّ مقامه هناك لم يستغرق طويلاً فعاد إلى المعرّة لسببين رئيسيين: أحدهما "فقد أمّه التي كانت

<sup>١</sup> - أبو العباس شمس الدين بن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١١٣.

<sup>٢</sup> - أبو العلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، ج ٢، ص ٣٠٧.

تتعهد، وفقد أسرته وفقد أصحابه الذين ألفهم وأفوه منذ الصبأ ورضى عنهم ورضوا عنه وثانيهما: أنّ أبا العلاء كان شديد الأنفة والإباء، وقد ضاق المال الذي اصطبحه إلى بغداد عن حاجاته الكثيرة في السفر ولم يستطع أن يستقدم غيره من المعرّة لبعد الشقة أو لعدم وجود ما يسدّ حاجته، كما أنّه لم يستطع أن يبذل ماء وجهه بسؤال أحد.<sup>١</sup>

وبعد فترة قصيرة من حياته أي في السنة الرابعة من عمره أصيب بداء الجدري وكفّ بصره منه. كان المعري مرهف الإحساس والشعور وإنّ ما لقيه من أذى الدهر وصعابه قد جعل الحياة مبعوضة إليه فاختر العزلة في حياته والزهد عن الدنيا وزخارفها هو ما يسترعي انتباهنا عند التطرّق إلى حياته. قال القفطي عن موته: "وفي يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول يعني من سنة تسع وأربعين وأربعمائة توفّي بمعرّة النعمان من الشام أحمد بن عبدا... بن سليمان التّوخي المعري الشاعر الأديب الضّرير".<sup>٢</sup>

## ٢- الفصول والغايات من ناحية الشكل

سنبحث في هذا المجال عن الفصول والغايات من ناحية الشكل حيث نهتم بالجرس والإيقاع حصيلتي السجع السائد على الكتاب، والمفردات وكيفية استخدامها من قبل الكاتب، والخيال وعناصره، ونظم الجمل وطريقة التعبير والتصميم والبناء.

### ٢-١- الجرس والإيقاع:

يلازم الجرسُ والإيقاعُ النثرَ المسجوعَ كما يلزم الشعرَ ويمكن القول بأنّ السجع في النثر هو الذي يشكل الجرس والإيقاع ويتركه وراءه كظلٍّ يرافقُ صاحبه أينما راح. والسجع: "هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر".<sup>٣</sup> ولو تصفّحنا الفصول

<sup>١</sup> - محمد سليم الجندي، الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، المجلد الأول، ص ٢٦٤.

<sup>٢</sup> - جمع من المؤلفين، تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، ص ٥٦.

<sup>٣</sup> - سعدالدين التفتازاني، مختصر المعاني، ص ٢٩٤. و الفاصلة في النثر كالقافية في الشعر.

والغايات وبحثنا عن السجع فيه لرأينا أنه يزخر بنوعين من السجع وهما السجع المطرف والسجع المتوازي. مثل قوله: "أما الإله فمرجّب، وأما القدر فعجب."<sup>١</sup> و "أنعم ربنا كل حين، وجاء فعله بالبرحين."<sup>٢</sup> و"ما أنس رجل وحيد بين أناس حيد، عن مودة الحريد، رجع إلى عشيرة، بالرشد عليه مشيرة."<sup>٣</sup> و"أعوذ بعزته من برق ارتعج، في ليل أدعج، وهدر الرعد وعجّ، وجرى سيل فتمعج، فأيقظ النائم وأزعج، وأثر في الأرض ولعج، وبكي في ضحك وضحك في انتحاب"<sup>٤</sup> والملاحظ في العبارات التي مر ذكرها هو اختلاف الفواصل في الوزن والاتفاق في التقفية والفواصل هي: "المرجّب والعجب" و"حين وبرحين" و"وحيد وحيد وحريد" و"ارتعج وأدعج وعجّ وتمعج وأزعج ولعج" فالسجع الموجود بين هذه الفواصل هو السجع المطرف.

ثم يقول: "أحلف بسيف هبار وفرس ضبار، يدأب في طاعة الجبار، وبركة غيث مدرار، ترك البسيطة حسنة الحبار، لقد خاب مضيع الليل والنهار، في استماع القينة وشرب العقار"<sup>٥</sup> وأيضاً يقول: "الله الكامل، والنقص لجمعنا شامل، فماذا يومل الأمل"<sup>٦</sup> ففي هذه العبارات تتفق الفواصل في الوزن والتقفية وهي: "هبار، وجبار، وضبار، والحبار، والنهار، والكامل والشامل والأمل" والسجع الجاري بين هذه الفواصل هو السجع المتوازي.

<sup>١</sup> - أبو العلاء المعري، الفصول والغايات، ص ٤٤٨.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٤.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٥. حيد: جمع احيد و هو الذي يحيد عن الشيء و الحريد: المنفرد.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٧٧. ارتعج البرق: إذا اشتد اضطرابه. أدعج: الأسود. هدر الرعد: صوت. وعجّ كذلك. تمعج السيل: إذا سال هاهنا وهاهنا. اللعج: التأثير في الجلد وفي القلب.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ١١. الهبار: القاطع. والفرس الضبار: الذي إذا وثب وقعت يده. مجتمعتين.

الحبار: الاثر والهيئة. العقار: الخمر.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه، ص ٥٨.

والمعري لا يلتزم السجع دائماً في كتابه إذ أنه يجري أحياناً وراء ما يشغله عنه فاستمع إليه يقول: "خَلَقْتِي كَمَا شِئْتَ وَأَعْطَيْتِي مَا لَا أَسْتَحِقُّهُ مِنْكَ، وَلَعَلَّ فِي عِبِيدِكَ مِنْهُ مِثْلِي أَوْ شَرٌّ، فِي خَزَائِنِهِ بَدْرُ اللَّجِينِ وَالْعَقِيَانِ، لَا يَطْعَمُ مِنْهَا الْمَسْكِينُ وَلَا يَغَاثُ الْمَلْهُوفُ وَالطُّفَّ بِرَبِّ وَلَا تَجْعَلُ خُطَايَ فِي وَعَاثٍ."<sup>١</sup>

يعتقد المعري كلامه بأساليب شتى ومنها هي: "تصعب ممراته إلى أسجاعه، إذ نراه يعني بالتزام ما لا يلزم فيها فإذا هو بيني أسجاعه لا على حرف واحد، بل على حرفين أو أكثر. وهو لا يكتفي بذلك بل نراه يعدل في أحوال كثيرة إلى المجانسة وهو يستعين على هذه المجانسة باللفظ الغريب الذي كان يشغف به شغفاً شديداً."<sup>٢</sup>

ويتضح لنا مما سبق أن أبا العلاء لا يسجع كغيره من الكتاب لأنَّ الآخرين من الكتاب عندما أرادوا السَّجْعَ في كلامهم بينون أسجاعهم على حرف واحد على الأغلب والحال أنَّ المعري يفرض على نفسه حرفين أو أكثر من الحرفين في أسجاعه. والواقع أنَّه يلتزم في السَّجْعِ ما يلتزمه في قافية اللزوميات.<sup>٣</sup> والآن نأتي بنموذجين من الفصول والغايات وديوانه اللزوميات ليظهر لنا أنه لم يحدِّدْ حدَّ الآخرين في اعتمادهم على حرف واحد في فواصل آثاره المنثورة. يقول في الفصول والغايات: "صُلَّ على الظالم بالْمُنْصَلِّ وَاخْضَبَ السَّفَاسِقُ مِنْ دَمِ الْفَاسِقِ."<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٧١. الوعاث: جمع وعث وهو المكان السهل الكثير الدَّهْسِ تَغْيِبَ عنه الأقدام.

<sup>٢</sup> - شوقي ضيف، الفن و مذاهبه في النثر العربي، ص ٢٦٩.

<sup>٣</sup> - طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين « قسم مع أبي العلاء في سجنه»، المجلد العاشر، ص ٤٥٠.

<sup>٤</sup> - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام، ص ٢٠٨. المُنْصَلِّ: السيف. السَّفَاسِقُ: ممَّا يوصف به السيف وهي طرائق فيه وقد تُسمَّى الطرائق في ظهر الجمل إذا أكل الربيع السَّفَاسِقُ وكذلك في القوس والسنان

لقد ذكر المورخون أنّ المعري حاول معارضة القرآن في إيقاعه وفواصله ولا بدّ من النظر إلى هذا الكلام بشيءٍ من الريب حيث أنّ من أمضى النظر في الفصول و لغايات و جدّ أنّه نسجه على أسلوب القرآن في بعض جوانب منه كما يقول: "أدلت العائذة أباها، وأصابَ الوحدة وربّاهَا، والله بكرمه اجتباها، أولاهَا الشرف بما حبّاهَا، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عُباها"<sup>١</sup> ففي النظرة الأولى لهذه الفقرة من الكتاب يخطر لنا أنّ صاحب الفصول نسجها على أسلوب سورة الشمس وختمها بالآية الأخيرة منها "ولا يخاف عُباها".

عندئذٍ نحن أمام طريقتين مختلفتين: الطريق الأول يوجّهنا إلى الرأي الذي يقول بأنّ المعريّ أراد بهذا الكلام معارضة القرآن الكريم. أمّا الطريق الثاني يدلّنا على أنّه قدّ القرآن الكريم بعض الأحيان في أسلوبه وفي ما ينطوي عليه من صور مشبهة لبعض صور القرآن. بالنسبة للطريق الأول يمكن القول بأننا نرفض أن يكون المعريّ قد عارض القرآن لأنّه كان من الواجب أن يشمل هذا الأسلوب الكتاب كلّه والحال أنّنا عثرنا على هذا الأسلوب في بعض جوانب من الكتاب فقط، إذًا فالأقرب إلى الصواب والأعدل هو أن لا نقطع بمعارضة المعري للقرآن الكريم وأيضاً من المعقول أن نحكم على أنّ المعريّ قدّ القرآن في أسلوبه بعض الأحيان وأتى بصور تشبه بعض صور القرآن وقدّ من الفواصل القرآنية خاصّة فواصل سورة الشمس إعجاباً بهذه الفواصل الرائعة الجميلة.

## ٢-٢-٢-المفردات

كما نعلم إنّ للمفردات دوراً هاماً في خلق المفاهيم و المعاني التي اختلجت في نفس المعري إذاً فعلياً أن نتوقّف قليلاً لديها كي نتعرّف على القيمة الفنية للفصول و الغايات أكثر فأكثر.

<sup>١</sup> - ابو العلاء المعري، الفصول و الغايات، ص ٢٥٣.

## ٢-٢-١- الدقة في استخدام المفردات

عندما نريد أن نتوقف عند كلمة شعرية كانت أم نثرية فلا بد لنا من تطبيق مبدأ الدقة عليه ومعناها أن يختار الشاعر أو (الكاتب) من الكلمات أدقها في أداء المعنى الذي يجول في نفسه، فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدل على إحساس الشاعر أو (الكاتب) من بعض، و"الشاعر و(الكاتب) الموفق هو الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عما يريد، لأن التمييز بين الألفاظ شديد".<sup>١</sup>

فعلی سبیل المثال نختار هذه الجملة من الفصول والغايات وهي: "إن ربنا لو اختار، لا تخذت القائنة حباً من الحبة"<sup>٢</sup> يقول المعري إن الله لو شاء لجعل بذور الأعشاب قرطاً تزين النساء وتعلق في شحمة أذنه بغية البهجة والجمال.

هناك سؤال يطرح نفسه لماذا أتى المعري بكلمة الحبة بدلاً عن أية كلمة أخرى؟ الحقيقة أنه قصد بها الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويقضي ما أحب بحيث يقدر على أن يجعل البذور زينة للنساء جمع وهو اختار لفظه "الحبة اختياراً حسناً بسبب مجانستها مع كلمة "الحب" في اللفظ والسبب الآخر الذي هدى المعري إلى اختيار هذه الكلمة هو أن الحبة دون غيرها من الكلمات تصلح لأن تكون قرطاً معلقاً في شحمة أذن النساء.

وفي موضع آخر من كتابه يقول: "لم أر كالدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرها بقتل الأزواج وهي على ما اشتهر كثيرة الخطاب"<sup>٣</sup> قد تم اختيار الكلمات في هذه العبارة العلائية اختياراً

<sup>١</sup> - أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٤٥٢.

<sup>٢</sup> - أبو العلاء المعري، الفصول والغايات، ص ١٩٨. القائنة: التي تقين النساء أي تزينهن. الحب: القرط. الحبة: بذور الشعب.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ١٠٢.

دقيقاً يدلّ على المعنى الذي كان يجول في نفس المعري ويريد بها الإشارة إلى أنّ الدنيا تُزري نفسها للراغبين فيها على مدى القرون والعصور وشبّهها بالعجوز دون العروس إذ إنّ الدنيا مضت عليها آماط طويلة وهي يخطبها الناسُ فصارت عجوزاً من تتابع الأيام وتواليها وهي تدفن أزواجها تحت التراب والحال أنّهم يمدّون أيديهم إليها غير أنّها تتركهم وتُزري جمالها للآخرين من خطّابها والكلمات التي اختارها المعري في كتابه هذا تتسم كلّها بسمة الدقّة ومرّد ذلك إلى اطلاع المعري الواسع على لغة العرب، حيثُ جعله قادراً على اختيار أدقّ الألفاظ في أداء المعنى الذي أراده.

والاطلاع الواسع للمعري على لغة العرب قد جعلَ كتابه زاخراً بالمفردات الغريبة وهذه المفردات هي زينة الكتاب إلا أنّ هناك فارقاً بين غرابة مفردات الفصول والغايات والتي صنعها الكتاب الآخرون إذ إنّ المعري أغرب في هذا الكتاب أوسع ما يكون الإغراب وكيف لا يغرب في كتابه وهو عالم بجميع المفردات التي استعملها العرب أو لم يستعملوها.

#### ٢-٢-٢-٢-٢-٢ عدم الابتذال في المفردات

من القضايا المهمة التي يجب أن نكثر بها هي قضية الاستعمال أو الابتذال و"معنى ذلك أن تكون الكلمة مسموعة عن العرب الفُصحاء."<sup>١</sup> ويبعد الفصول والغايات عن الاستعمال والابتذال والمعري لا يعتمد على المفردات المبتذلة المستعملة بل هو يرغب في الغريب من الكلمات التي لم تجتمع لأحد من الذين سبقوه أو عاصروه وهو كما سبق يعقد كلامه ويصعبه أشدّ تصعيب إلى أن يشرح ما التبس فهمه على طلابه الذين كانوا يقبلون عليه من جميع الآفاق ويقرؤون عليه، والحق أنّ المعري كان عالماً ذا ثقافة واسعة وكان من القلائد الذين عرفوا مانطقت به العرب.

<sup>١</sup> - أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٤٦٣.

يقول الذهبي: إنه: "كان عجباً في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا".<sup>١</sup> وأيضاً يقول ابن الجوزي: إنه "سمع اللغة وأملى فيها كتباً وله بها معرفة تامة".<sup>٢</sup> وهذه كلها تشهد على ثقافته الواسعة في اللغة. إليك هذه العبارة: "حبذا العرمض، أوان الرّمض، بالله استغاث الرّمضون، رضيت بالخضض، على مَضض وبقضاء الله رضي السّاخطون، لا يغرنك إغريض، في إحريض، فإنه يزول والله باق".<sup>٣</sup> وكما لاحظنا تتكوّن هذه العبارة من المفردات الغريبة غير المبتدلة في عصر المعري وهي: العرمض، والرّمض، والرّمضون، والخضض، والإغريض، والإحريض.

## ٢-٣- الخيال

ينحصر الخيال في إطار النقد الأدبي في أبواب التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وسنتناول كلاً منها بالبحث على حدة إن شاء الله.

## ٢-٣-١- التشبيه

يحفل الفصول والغايات بتشبيهه جميلة تحرك النفوس وتدعو القلوب إليها. كقوله: "لا آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهن بنات جمير ووضعتهن في عُنقي الضعيفة كما يُنظّم صغار اللؤلؤ في ما طال من العقود ولو سفكت دم الأبرار حتى استنّ في كاستنان الحوت في معظم البحر وثوباي من النجيع كالشقيقتين والتربة منه مثل الصرّبة، لرجوت المغفرة".<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> - جمع من المؤلفين، تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه النحاة للقطبي، ص ١٩٠.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ١٨.

<sup>٣</sup> - ابو العلاء المعري، الفصول و الغايات، ص ٢٩٥. العرمض: الطُّلب. الرّمض أن يشتد الحر في الرّمضاء وفي الحصالصغار ولا يقال له رمضاء حتى تشتد عليه الشمس.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٣١. بنات جمير: واحدها ابن جمير وهو الليل المظلم أستنّ فيه: أمضى فيه على شق من النشاط. والصرّبة: صمغ أحمر ويقال إنه صمغ الطلح

هنا يتحدث المعري عن ذنوبه ويشبّهها بالجمال مرّة وبالليل المُظلم مرّة أُخرى لسوادها وكثرتها ثمّ يشبّه مضيه في سفك الدّماء بمضي الحوت في البحر الذي يقتل السمّكات عندما يمرّ بها وبالتّالي يشبّه ثوبه والتّربة المُطّخين بِدَمِ الشّقيّين والصّمغِ الأحمر. وهو في هذه التشابيه الطّريفة الرائعة وبعد أن يقترف بكثرة ذنوبه وسوادها كالجبل والليل المُظلم لايبأس من رحمة ربّه الواسعة فيرجو غفرانه كأنّه نظر بلحظة غيب إلى الحديث المروي عن المصطفى (ص): "والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهبَ اللهُ تعالى بِكم، ولجاءَ بِقومٍ يذنبون فيستغفرون اللهُ تعالى فيغفرلهم."<sup>١</sup> ولاشك أنّ المعري قد أصابَ ووفّق في التعبير عن المعنى الذي كان يجول في نفسه بهذه التشابيه التي تبرز فكرته وتُجلبها جلاءً تاماً.

### ٢-٣-٢- الاستعارة

الاستعارة هي من المجازات التي عني بها النقاد عناية كبيرة لأنّها تكون ذات قيمة رفيعة بين فنون البيان. وهي: "أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللّغوي معروفاً تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غيرالشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية"<sup>٢</sup> قد استفاد المعري من الاستعارة للتعبير عن المعاني المثيرة للأحاسيس المرهفة. خذ هذه العبارة كنموذج: "لو نقلتُ مياه اللّجج على منكبي في قُذاف، وأفرغته على مناكب الجبال، وجرّرتُ كُثبان الأرض وصرائمها في جرٍّ أو مشاة، فألقيتها في الخُضر الدائمات، حدّداً اللهُ كنتُ أحدَ العَجْزة المُقصرين."<sup>٣</sup> شبّه المعري هنا الجبال بالإنسان ثمّ حذف الإنسان وأبقي إحدى لوازمه وهي المناكب علي أنّه الاستعارة المكنية وهذه الاستعارة هي استعارة رفيعة أي بعيدة عن

<sup>١</sup> - محمد حسن الحمصي، القرآن الكريم (مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ)، ص ٩٦.

<sup>٢</sup> - الشيخ الامام عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٢٧.

<sup>٣</sup> - ابو العلاء المعري، الفصول والغايات، تحقيق، ص ٧٤. القُذاف: الجرّة. المشاة: زبيلٌ من أدَم. الخُضر الدائمات: اللّجج الواقعة. الحدّ: السُرعة في الخدمة.

العامية والابتذال وهي أيضاً تتسم بِسِمَةِ الطَّرَافَةِ والجِدَّة. بمعنى أنها تُتَلَقَّى قَبُولاً لَدَى الذوقِ المعاصر وبالجملة إنها استعارة تجرُّ القلوبَ وراءها لتهدئها إلى منهلٍ عذبٍ من المعاني الرائعة الطَّرِيفَةِ.

## ٢-٣-٣- الكناية

من المعروف أنَّ المعري صعبَ كلامه أشدَّ تصعيب وابتعد عما يفهمه الناسُ أكثرهم من الكلمات والمعاني وهذا جعله يستخدم الكلمات والمعاني الغراب، فأدخل الكثير من الكنايات في كتابه. "و يلجَّ في استخدامها أشدَّ إلحاحٍ و هو لا يذكر الأشياء بأسمائها المعروفة بها إلى أن يحسب القاريء أنه نسي أسماء هذه الأشياء."<sup>١</sup> يقول: " و قد ركبتُ ذا الطرَّتين فكان الصَّعبَ الذلول."<sup>٢</sup> فهنا كني بذوالطرَّتين عن الليل. أيضاً يقول: "طوبى للمترنمين بالتسبيح ترنم هزج النهار"<sup>٣</sup> و هزج النهار كناية عن الذباب. و جارَّ الضبَّع في عبارة: "لو أصابني جارَّ الضبَّع ما غسلني من الذنوب"<sup>٤</sup> كناية عن مطر شديد كأنه يجرُّ الضبَّع أي يخرجها من وِجارها. و أبيض حرَّ في عبارة: "عزم طاعنٌ على الشُّخوص فأتخذَ سُمَّةً من خوص، فيها أبيض حرَّ."<sup>٥</sup> كناية عن الخبز، و هناك الكمَّ الهائل من الكنايات التي يحفل الفصول و الغايات و منها:

ذاتُ الفقار كناية عن العقرب، و بنت الفحاء كناية عن الكلمة و الفحاء الشفة السفلى إذا كانت مشقوقة، و من الكنايات أيضاً هي بنت طبق كناية عن الحية و ناصح الجيب كناية عن الصدر و كذلك كنى المعري عن الإبل بنات العيد.

<sup>١</sup> - گروهی از نویسنندگان، دائرة المعارف بزرگ اسلامی، ج ٦، ص ١٥.

<sup>٢</sup> - ابوالعلاء المعري، الفصول و الغايات، تحقيق، ص ٣٤٥.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٢١٩.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٣٨. الشخوص: المسير، سُمَّة: نحو السُّفرة تتخذ من الخوص.

و الكنايات التي استخدمها المعري قد وردت في كلامه لأول مرة إذ إن صاحب الفصول والغايات من أساطين اللغة في عصره و لاجب أن يأتي بما لم يأتي به الآخرون. ويسعى المعري أن يجمع في كتابه ألفاظاً لغوية غريبة مغرقة في الإغراب ولا يهمله أن تكون هذه الألفاظ سُجّلت في المعاجم اللغوية بل إن عدم تسجيلها في المعاجم يدفعه إلى أن يسجلها في كتبه ومنها الكنايات التي نراها في الفصول والغايات. وفضلاً عن هذا كله يكتفي المعري بكلمات مختلفة عن شيء واحد. فعلى سبيل المثال هو كنى عن الحية بأربع كلمات هي: بنت الجبل<sup>١</sup>، وبنت طبق<sup>٢</sup>، وأمّ عثمان<sup>٣</sup>، وابن قنرة<sup>٤</sup>، وأيضاً يكتفي عن الذئب بكلمتين وهما: أبو مَذَقَّة<sup>٥</sup> وأبوجعدة<sup>٦</sup>، وأيضاً كنى عن الليل بذي الطرّتين<sup>٧</sup> وبنات وبنات جمير<sup>٨</sup>.

#### ٢-٣-٤- المجاز

يحتوي الفصول والغايات كثيراً من المجازات. خذ هذه العبارة كنموذج: "شهد بك البرق و الرّعد، والنبات التّعد، والثّرى الجّعد، وخضعت قحطان لك ومعدّ، وجرى بقدرك النّحس والسّعد."<sup>٩</sup> ففي عبارة "شهد بك البرق والرّعد" مجاز عقلي لأنّ المعري أثبت فعل الشهادة للبرق والرّعد على سبيل المجاز لا الحقيقة.

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٥٢.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ١١٤.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٥٦٢.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٢٩.

<sup>٧</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

<sup>٨</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٣١.

<sup>٩</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٧.

وفي موضع آخر من كتابه يقول: "إذا نفتك الشدائد إلى المفازة ومعك خيط من الأبق، و ممسك ماءٍ وفغرت لك البيداء فم جفر فأصبت منه بُغيتك، فاصنع حوضاً ولو قيد فتر فلق فيه من نزيح ذلك الجفر فما أصابه من وحشٍ أو إنسٍ أو ذي جناحٍ فلك من الله الثواب".<sup>١</sup> هنا يدعو المعري الإنسان إلى القيام بالمعروف والفعل الحسن في جميع الأحوال والظروف ولو قذفت به الكوارث. والمجاز هنا واقع في إثبات النفث أو القذف فعلاً للشدائد والفجر أو الفتح للبيداء على أنه مجاز عقلي إذا إن الشدائد لا تتمكن من القذف بالإنسان كما لا تتمكن البيداء من فتح الفم.

## ٢-٤- نظم الجمل

يتكوّن الفصول والغايات من فصول مختلفة قد تقصر وقد تطول وقصر فصوله أو طولها تابع لما قصده المعري من المعاني والمفاهيم. والناظر لكتابه يرى أنه لم يسهب في الجمل التي استخدمها بل هو أوجز فيها أشد الإيجاز. يقول المعري في إحدى فصول كتابه: "خبرك عند ربك، إذا استعجمت الأخبار، أذاك نصب إلى وصب، وربك مُصِحّ الأجسام، هجم بك التمل، على طول الأمل، ربنا قاضي الحاج، والجملة أن الأمل صحيح، والجسد كثير الأوصاب".<sup>٢</sup> فهنا نراه أوجز في الجمل ولم يطنب فيها ويبدو أن الأمر الذي جعله يسلك هذا المسلك من سرد العبارات القصيرة هو إعجابه بالقرآن على أنه مثل أعلي في الفن الأدبي فتأثر به كما تأثر بأسلوب القرآن علي نحو تقليده من أسلوب أقسام الذكر الحكيم:

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٣٢. النفث: شبيه بالنفخ. الأبق: القنب. ممسك الماء: الوعاء الذي يمسكه ويحفظه. البيداء: القلاة.

فغرت: فتحت. الجفر: البئر الواسعة التي لم تطو وقيل هي التي طوي بعضها ولم يطو بعض. البغية: الحاجة. القيد: القدر. الفتر: ما بين طرف الإبهام والسبابة إذا فتحها النزيع: كالمنزوع أي ما أُستخرج.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ١٠٣. التمل: السكر. الوصب: المرض الدائم.

"أقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرَّحِيل، تطلب مواطن حُلَيْل، والريح الهابّة بليلى، بين الشَّرَطِ ومطالع سُهَيْل، إنَّ الكافر لَطْوِيل الوَيْل، وإنَّ العُمُرَ لَمَكْفُوفُ الذَّيْل".<sup>١</sup> قد اعتمد المعري على الجمل الفعلية أكثر من اعتماده على الجمل الاسمية وهو يراعي ترتيب أجزاء الجمل ويأتي بالفعل وبالفاعل بعده ثمَّ بالمفعول به ونرى أحياناً أنَّ اعتماده على العبارات الاسمية أفضل من اعتماده على الجمل الفعلية. خذ هذه العبارة: "العقل نبيء"، والخطر خبيء، والنظر ربيء، ونور الله لهذه الثلاثة معين".<sup>٢</sup>

وإلى جانب هذا كله يزخر الكتاب بالعبارات الإنشائية والإخبارية، والعبارات الإنشائية تكون أكثرها من نوع الإنشاء الطلبي من الأمر والنهي والاستفهام ولتمني والنداء. نحو: "احفظ جارك، وإن كان من العضاة فاتق شوكة، وليكن تحريقه بيد سواك، ولا تمنع خشونة المس من التناء على البرم بالطيب"<sup>٣</sup> وفي موضع آخر يقول: "لا تكن الظالم ولا معينه، يزو عنك الشر قطينه".<sup>٤</sup>

ومن العبارات الإخبارية: "خوف الله معاقل الأمن، والحكم له في العاقبة والمبتدأ، لا يردُّ عليه عَجَبٌ"<sup>٥</sup> وأيضاً يقول: "لله المنُّ والطول، شاهداً ما غاب ولن يغيب، وقديماً ليس لببدائه وجود، تقاصر لأوليته طوال الأعمار".<sup>٦</sup>

## ٢-٥- طريقة التعبير

إذا أتينا إلى الفصول والغايات وبحثنا عن الجدِّ والهزل فيه لتوصلنا إلى أنَّ المعري ابتعد عن الهزل في كلامه وجدَّ فيه. ذلك أنَّ موضوع الكتاب هو تمجيد الله تبارك

١- المصدر نفسه، ص ٣١٣.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

٣- المصدر نفسه، ص ٣٢٣. البرم: ثمر العضاة وهو طيب الرائحة.

٤- المصدر نفسه، ص ٣٧٥. يزوي: ينحي، والقطين: هنا بمعنى المقيم.

٥- المصدر نفسه، ص ٢١٩.

٦- المصدر نفسه، ص ١٢٦.

وتعالى. فيقول مُمَجِّدًا رَبَّهُ: "الحمد لله الذي أنعم فأغفلتُ الشكر، وأحسن فأسأتُ وأمهلتُ زماناً فما أنجمتُ، حمداً يوفي على كل عدد جال في ضمير، ونطق به ناطق وأشار إليه مُشيرٌ، و ما سوى ذلك من العدد الذي علّمه مُرسل السنّة وكاشف السنّوات."<sup>١</sup>

ونرى أحيانا أنّه هزل في كتابه لكننا لا نكاد نمضي في قراءتها حتى يأخذنا شيءٌ من الدهش فإذا فرغنا من قراءتها وقفنا حائرين. إقرأ هذا الفصل: "يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، ويسمع الأصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمه، ويجد الطعم بأذنه، ويشمّ الروائح بمنكبه، ويمشي إلى الغرض على هامته، وأن يقرن بين النير وسنير، حتّى يرياً كفرسي رهان، وينزل الوعل الزعل من النيق، ومجاوره السوذنيق، حتّى يشدّ فيه الغرض، وتكرب عليه الأرض، وذلك من القدرة يسير. سبحانك ملك الملوك عظيم العظما"<sup>٢</sup> صور المعري بخياله إنساناً ينظر بقدميه، يمشي على رأسه، يسمع بيده، يبكي بأصابعه، يذوق بأذنيه، وأيضاً نراه يجمع بين جبلين قد استقرّ أحدهما في الشّام والآخر في نجد ونشاهد الحوش التي تتجه صوب السّهول المنخفضة من أعالي الجبال.

فهذه العبارات هي مصدر الضحك في البداية لكن إذا دققنا النظر فيها يأخذنا الدهش. يقول فيه الدكتور طه حسين: "ظاهر هذا الفصل فواضح لا غموض فيه، فأبو العلاء يبنينا بأنّ قدرة الله شاملة تسع كل شيء ممكن في رأي العقل وهذا لون من ألوان التمجيد لله والإشادة بقدرته الشاملة."<sup>٣</sup> فيمجد المعري ربّه بالإشارة إلى قدرته التي تستطيع أن تجعل الإنسان ناظراً بقدمه وسامعاً بيده وماشياً على رأسه كما يشير إلى جمع المتباعدين بقدرته جلّ وعلا.

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ١٢٥. أنجم: أطلع. السنّوات: سنو القحط والجذب

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٩. النير: جبل بأعلي نجد. سنير: جبل بين حمص و بعلبك. السوذنيق:

الصقراً أو الشاهين.

<sup>٣</sup> - طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين: «قسم مع أبي العلاء في سجنه»، المجلد

العاشر، ص ٤٦٣.

## ٢-٦- التصميم و البناء

إنّ للكلمات دوراً رئيسياً في خلق الأعمال المختلفة من الأدبية أو التاريخية أو الاجتماعية وما شاكل ذلك وهي تُعدّ لبنات معتمدة عليها في إيجاد الأفكار وخلقها. "والكلمات لا تعني الدلالة على الأشياء، وإنما تعني أفكاراً وأشياء في الوقت نفسه وهي إذن ليست قطعاً من الخشب أو الفسيفساء يوضع بعضها إلى جانب بعض وإنما هي أرواح تخزّن في داخلها مشاعر وإحساسات."<sup>١</sup>

والأفكار التي تطرّق إليها المعري في كتابه بشكل مُبعثر هي: الاستغفار، وذكر الله، وذكر الموت، والإشارة إلى ذنوبه، والإشارة إلى قدرة الله تبارك وتعالى، والتقوى والحثّ عليها، والحديث عن الدنيا. والمعري يستغفر غير مرّة في كتابه نحو: "أستغفر من لا يعزب عليه الغفران"<sup>٢</sup> و"أستغفر ماحي السيئات من قول ليس بإسناد."<sup>٣</sup>

وفي موضع آخر يقول: "اسق اللهم غفرانك قبوراً طال عهدها بالعهد"<sup>٤</sup> وعن ذكر الله يقول: "عجبت لِمَ ذكر الله كيف يردُّ وثنياً مرّاً بها ذكره كيف تحبّر"<sup>٥</sup> و"أسمر بالتذكّرة و سامر"<sup>٦</sup> وأيضاً يقول: "اللهم اجعل ذكرك عذبةً على عذبة لساني"<sup>٧</sup> والفكرة الرئيسية الأخرى الواردة في كتابه هي ذكر الموت. استمع إليه يقول: "ويحي إذا الوقت نَفَدَ، ونزل حمامي فأفدَ، وقوّي نهوضي ورُفدَ"<sup>٨</sup> وأيضاً ويقول: "يا موتُ كلُّ ضبِّ تحترش، والأرض

<sup>١</sup> - محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص ٢٢١.

<sup>٢</sup> - أبو العلاء المعري، الفصول و الغايات، ص ٣٣. لا يعزب: لا يبعُد.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٥٤.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٧٢.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٨.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه، ص ١٢٨.

<sup>٧</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

<sup>٨</sup> - المصدر نفسه، ص ١١١.

والأرض تتوسد وتفترش" <sup>١</sup> ولا يغفل المعري عن كثرة ذنوبه فيتحدّث عنها في مواضع عديدة من كتابه ويقول: "كم أوطيء في الذنوب، وأضمن الحوب بالحب.... فاسترني ربّ فعيوبي أقبح من السنّاد والإكفاء" <sup>٢</sup>. أيضاً يقول: "إنّ معايبي لكثير، فجاز مولاي بالإحسان رجلاً أعلمني بعيب في" <sup>٣</sup> و"لاتجعلني ربّ أتقي صغائر الذنوب وأفعل كبائر السيئات" <sup>٤</sup>. وما يئس المعري من رحمة الله إلى جانب كثرة ذنوبه ويقول: "لما آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهنّ بنات جمير" <sup>٥</sup>.

أمّا الحديث عن القدرة الإلهية التي تقوي على إنجاز كلّ عمل خاصّة من المستحيلات والذي نجده غير مرّة في الفصول والغايات وهذا يدلّ على إيمان المعري بالله جلّ وعلا. يقول المعري: "إذا أذن ربنا اخضرّ الدّرين، وتيجّست بالماء الإرين، ووفى لقرينه القرين و راحت الساجسية ومأواها العرين" <sup>٦</sup> ثمّ يقول: "يقدر الله على المستحيلات: ردّ الفأنت، وجمع الجسمين في مكان" <sup>٧</sup>.

ويدعو المعري الناس إلى التقوى ويحثّهم عليها بالغدوات والآصال: "إتق الله بالغدوّ والآصال" <sup>٨</sup> أيضاً يقول: "لا بقوى لغير التقوى، فأحسن اليقين وكن من المتّقين" <sup>٩</sup>. أمّا الدنيا الدنيا والحديث عنها تشكل جزءاً آخر من الفصول والغايات: "أمّا الدنيا فحظوظ ضاع فيها

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٣١٤.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٥٤.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٦٤.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٧٠.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٦٤.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٣.

<sup>٧</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

<sup>٨</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٩.

<sup>٩</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٤١.

تعب الحريص، والخير عند ربنا لا يضيع"<sup>١</sup> و"لم أرَ كالدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرها بقتل الأزواج وهي على ما اشتهر كثيرة الخطاب"<sup>٢</sup> وفي موضع آخر يقول: "أيها الدنيا البالية ما أحسن ما حلتك الحالية أين أممك الخالية"<sup>٣</sup> وأيضاً يشير إلى أن الدنيا ستزول قائلاً: "إن الدنيا تحلف بربها الكريم الذي من حلف به كاذباً أثم وحاب، أنها زائلة أسرع زوالاً".<sup>٤</sup> زوالاً".<sup>٥</sup>

### ٣- الفصول والغايات من ناحية المضمون

يحيوي الفصول والغايات مضمونين هامين وهما: "تسبيح العاقل وتمجيده" و "تسبيح غير العاقل وتمجيده". فيما يلي سنبحث عن هذين المضمونين:

#### ٣-١- تسبيح العاقل وتمجيده

قد أفرد المعري قسماً من كتابه لتسبيح الإنسان وتمجيده لله جلّ وعلا وهو يسبح خالقه ويمجده على لسان شخص آخر كأنه مُعجَبٌ بعظمته سبحانه وتعالى فيفتح لسانه إجلالاً لله وتكريماً له جلّ جلاله. الواقع أن العبارات التي سبّح المعري من خلالها الله تبارك وتعالى ومجده هي تتبع عن قلب رجل مؤمن بالله و اليوم الآخر وإن شكك في مواضع من آثاره في أمر البعث والحساب كما يقول وهو غير مطمئن إلى البعث:

وظاهر أمرنا عيش وموت      ويدأب ناسك لرجاء بعث<sup>٥</sup>

وفي مكان آخر يتحدث عن حيرته عن أحوال الروح بعد الممات قائلاً:

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٤.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ١٠٢.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ١٩٦.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

<sup>٥</sup> - أبو العلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، ج ١، ص ٢٠٣.

أرواحنا معنا وليس لنا بها

علم فكيف إذا حوتنا الأقبير<sup>١</sup>

المعري يعتقد أنّ الأمور بيد الله جميعاً وهي تجري على قدرته ومشيئته: "لله الغلب، إليه المنقلب، لا يعجزه الطلب، بيده السالب والسلب"<sup>٢</sup> و يقول المعري إنّ العالم والكون مُحدث أي كائن بعد أن لم يكن والله سبحانه هو وارثه لأنّه ورث نفسه ملك السموات والأرض ويقول أيضاً إنّ المطر الشديد والمطر الضعيف ينزلان بقدرته ثم بالتالي يدعو الإنسان إلى أن يكفّ عن السوء كما يدعو إلى أن يسبح خالقه في النهار وحين اختلاط الظلام. "أمّا العالم فمُحدث، وربنا القديم المورث الوابل بقدرته والدث فاناً عن القبيح والرفث، وسبح في النهار والملث"<sup>٣</sup>.

إنّ المعري رجلٌ قد قضى عمره في سبيل الوصول إلى رضى الله جلّ و علا ويأمل دائماً أن يتملّ كل نفس من أنفاسه إنساناً يناجي ربّه في جوف الليل ولو دبّ النوم في أجفانه. يقول المعري: "ليت أنفاسي أُعطين تمثلاً، فتملّ كل نفس رجلاً قائماً يدعو الله تبتلاً، يمنع جفنه لذيذ الإغفاء"<sup>٤</sup> وفي موضع آخر من الفصول والغايات يتحدّث المعري عن صفات الحزماء ويرى أنّ الحازم من لا يظلم الناس وهو يمجدّ خالقه ويسبّحه ويرى أيضاً أنّه لا ينطق إلّا بغير طاعة الله إذا في رأيه من كان على ثلاث ميزات يعدّ من الحزماء وهي: نبذ الظلم، تسبيح الخالق و تمجيدّه، و قول الحقّ: "و الحازم الذي لا يابس، يمجدّ الله و يقدّس، و بغير طاعته لا ينبس، لعلّ الأجل يدركه من أهل الصفاء"<sup>٥</sup> و كثيراً ما يتحدّث المعري عن الدعاء و رغبته فيه. و يقول إنّ أنسي بدعاء الله تعالى أكثر من

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٧

<sup>٢</sup> - الفصول و الغايات، ص ١٥.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ١٨.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٣.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٥.

أنس رجل ابتعد عن بلاده و عشيرته ثم رَجَعَ إليها: "ما أنس رجل وحيد، بين أناسٍ حيد رَجَعَ إلى عشيرة، بالرشد عليه مشيرة، أكثر من أنسي بدعائك".<sup>١</sup>

يرى المعري أنّ الإنسان يفتقر دائماً إلى الله تعالى و لا يتمكن من الاستغناء عن ذاته جلّ و علا يقول: "من الغني عنك ينبغي أن يدعي ذلك من يقدر أن ينفع ويضرّ، و لا يقدر على المنفعة والضرر سواك".<sup>٢</sup> أيضاً يعتقد أنّ الله بارٌّ بكلّ من في البرّ والبحر ويشمل كرمه وجوده جميع الخلائق حتّى من بخل إذا سئل: "أنت الغافر الوافر، لمن غفل، وحقل، والبرّ، بأهل كلّ بحر و برّ، والهان، على الشحيح الآن".<sup>٣</sup>

وتلازم مخافة الله المعري طيلة حياته ويرى أنّ مخافة الله تصون الإنسان وتحفظه لأنّ الحاكم هو الله: "خوف الله معاقل الأمن، والحكم له في العاقبة والمبتدأ، لا يردّ عليه عجبٌ وكيف يعجب من شيء خالق العجائب ومبتدع الآزال".<sup>٤</sup> ثمّ يمجد المعري ربّه قائلاً: "ذكر الله أعذب ما طُرح إلى الأفواه يا سعادة من شُغف به لسانه"<sup>٥</sup> ويدعو المعري الناس إلى تقوى الله والابتعاد عن الكفر والإلحاد و هو أقسم بخالق الخيل والآبال المسرعة والريح العاصفة ليلاً أنّ الكافر يجرّ وراءه البور والهلاك كما أقسم به جلّ جلاله أنّ عمر الإنسان سينتهي ويرى الإنسان نتيجة ما قدّم من الأعمال فيها: "أقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرحيل، تطلب مواطن حليل، والريح الهابّة بليل، بين الشرط و مطالع سهيل، إنّ الكافر لطويل الويل، وإنّ العمر لمكفوف الذيل".<sup>٦</sup>

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٥

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٩.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٦٢.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ٢١٩.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه، ص ٣١٣.

ولذلك كان المعري خائفاً من ربه وجللاً منه فظهرت هذه المخافة بصور مختلفة في كتابه فعلى سبيل المثال يسأل الله أن يرزقه في خوفه الإحسان إلى والده ثم يسأله تبارك وتعالى أن يهدي له تحية أبقى من خضرة الجذب وأذكى من ورود الربيع وأحسن من بارقة الغمام تُضيء لها ظلمة القبر ويخضر لها تراب القبر. يقول المعري: "واجعلني في الدنيا منك وجللاً لأفوز في الآخرة بالأمان، وارزقني في خوفك برّ والدي وقد فاد برّه إهداء الدعوة له بالغدو والأصال، فأهد اللهم له تحية أبقى من عروة الجذب وأذكى من ورد الربيع، وأحسن من بوارق الغمام تُسفر لها ظلمة الجدث ويخضر أغبر السقاة ويأرج ثرى الأرض".<sup>١</sup>

ويتحدّث المعري ضمن كتابه عن صفات الله جلّ وعلا. حيث يقول: "إن الرفيع ليس بشفيح، وتلك صفة خالق الأولين لا مثل له ولا نديد".<sup>٢</sup> أيضاً يقول: "الملك لله راعي الغافلين الجبار القديم"<sup>٣</sup> و"الله القديم الأعظم، وبحكمه جرى القلم، أأا يخلد عالم ولا علم".<sup>٤</sup> وفي ما مرّ من الكلام قد تحدّث المعري عن تسبيح العاقل وتمجيده لله عزّ وجلّ وهنا نكتفي بهذا المقدار خشية الإسهاب.

### ٣-٢- تسبيح غير العاقل وتمجيده

تسبيح غير العاقل وتمجيده هذا هو عنوان القسم الآخر من الفصول والغايات وهنا يتكلم المعري عما يسبّح الله ويمجّده نحو السيف، الفرس، القمر، الرعد، البرق، الطير وما شاكل ذلك ممّا سنشير إليه فيما يلي. يرى المعري أن الحيوان و الجماد والنبات كلُّ يسبّح خالقه ويمجّده على سبيل المثال يحلف المعري بالسيف القاطع والفرس الضبار اللذين

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ٣١٩

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٧٨.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٣١٨.

يطيعان الله أن من أضع عمره في اللهو واللعب سيخيب: "أحلف بسيف هبار وفرس  
ضبار يدأب في طاعة الجبار لقدخاب مضيع الليل و النهار، في استماع القينة وشرب  
العقار"<sup>١</sup> وفي موضع آخر يقول: إن أفاطيع الطباء والبقر ويد الماشية ورجلها أيضاً  
سوار النساء وخالهن كلها تشهد بالله جلّ وعلا: "سرب المومة والإجل ويد الماشية  
والرجل وسوار الكاعب والحجل يشهدن بالله أعظمته نار رآها الشماخ بالغميم."<sup>٢</sup>

وفي موضع آخر يدقق المعري في جميع حركات الفرس وأحواله ويقول إذا سحلّ  
الفرس فسحيله تمجيد لله وإذا شحج فشحجه هو تكبير وتهليل وقيام الفرس على ثلاث  
قوائمه في رأي المعري هو أيضاً تقديس لخالقه يقول المعري: "إن سحلّ فعن مجد الله  
ترجم السحيل، وإن شحج فشحجه تكبير و تهليل، وإذا صفن فصفونه تقديس."<sup>٣</sup> و لم ينس  
المعري ذكر النجوم والكواكب في كتابه فيقول: "رُحلّ زنجي بين يديك، والمشتري عبّد  
لك مطيخ، والمريخ يتصرف بين أوامرك ونواهيك، والشمس والزهرة أمتان تتصفاك،  
وعطارد والقمر مستخدمان، لا يصلان إلى الاعتناء."<sup>٤</sup> فرأى المعري أن الأنجم السبعة  
تتقاد لأوامر ربها ونواهيها وتحدث عنها ببراعة العالم الفلكي كأنه قد تلقى هذا العلم عن  
الآخرين.

وفي مكان آخر يتحدث المعري عن تسبيح الرعد والبرق والريح المثيرة للغبرة وأيضاً  
عن تسبيح الحمام على الأغصان ويأمل أن يسبح الله معها. يقول المعري: "ليتني سبحت  
الله مع الرعد القاصف، والبرق اللاصف والهبوب العاصف، والحمام الهاتف، على

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ١١.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ١٢.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٢١.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ١٠٤.

الغِصْنَةَ الرَّطَابَ<sup>١</sup> " أيضاً يقول: "سَبَّحَ لَهُ زُرْقَةُ الْأَفْقِ وَزُرْقَةُ الْمَاءِ وَحُمْرَةُ الْفَجْرِ وَحُمْرَةُ شَفَقِ الْغُرُوبِ."<sup>٢</sup>

وطيور السماء هي أيضاً مُسَبَّحَةٌ وَمُجَدَّةٌ لِرَبِّهَا، يقول المعري: " وبك تُقَرَّرُ النَّسُورُ: نَسْرٌ جَرَبَةٌ وَالْوَاقِفُ عَلَى النَّبِيلَةِ."<sup>٣</sup> ويقول عن العقبان التي تطير على أعالي الجبال: "لَاتُغْفَلُ ذِكْرُ اللَّهِ عِقَابٌ تَقَطَّعَ الْبِلَادَ عُقْبَاءً، بَاتَتْ فِي رَأْسِ جَبَلٍ فَأَصْبَحَتْ وَكَأَنَّهَا نَدَفَ عَلَيْهَا الضَّرِيْبُ عُطْبَاءً."<sup>٤</sup>

فَلَا حَظَّنَا أَنْ الْفُصُولَ وَالْغَايَاتِ يَحْفَلُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّمْجِيدِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ قَبْلِ الْعَاقِلِ وَغَيْرِ الْعَاقِلِ وَ قَدْ أَشَارَ الْمَعْرِي إِلَى تَسْبِيحِ الْإِنْسَانِ وَالْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا كَأَنَّهُ بِذَلِكَ قَصْدٌ أَنْ يَفْسِّرَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ: "يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ."<sup>٥</sup>

#### ٤- الخاتمة:

لقد كان المعري من عظماء عصره الذي ترك عدداً ملحوظاً من المؤلفات نثراً ونظماً. والقارئ لآثار أبي العلاء ليتعجب من ثقافته الواسعة وإطلاعه الشامل على كثير من علوم عصره. وهو بوضعه للفصول والغايات برز في جماعة الكتاب كمن لا مثيل له.

وقد أورد المعري في كتابه المفردات الغربية غير المبتذلة التي تكشف عن براعته العجيبة في رصف الكلمات واستخدامها ويُشاهد فيه الإيقاعات التي تهتز لها الأسماع.

<sup>١</sup> - المصدر نفسه، ص ١٠٥.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه، ص ٣١٩.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه، ص ٤٨٨. الضريب: الثلج و الصقيع. العُطْب: القطن.

<sup>٥</sup> - التَّغَابِنُ، ١.

والخيال يظهر في الفصول والغايات بمظهر آخر فالتشبيه والاستعارات والكنيات وأنواع المجاز تختلف عما كان لدى الآخرين من الكتاب، والمعري أراد أن يبدع في صور الخيال المستخدمة في كتابه لأنه يهدف إلى غاية كبرى هي الحديث عن تسييح الله وتمجيده جلّ وعلا على لسان كلّ من الإنسان والجماد والنبات.

ربّما يرى الكثيرون أنّ الفصول والغايات لكثرة شروحه كتاب لغّة، والحال أنّ المعري أراد أن يفسّر الغريب وسائر الإشارات العلمية لغموضها. ولكننا إذا تجاوزنا الشروح لوجدنا أنفسنا أمام نصّ أدبي من طراز خاصّ، طراز الذكر والتذكير. يمكن القول إنّ المعري قصد من خلال هدفه المنشود في فقرات كتابه أن يعلم اللغّة وعلومها من النحو والصرف وغريب المفردات والبلاغة مع الإلمام بمعارف كثيرة عن الحياة والأحياء.

إنّ الذكر والتذكير هو ما استحوذ على الفصول والغايات إلى أن قسّم الكتاب إلى قسمين من التذكير والتمجيد هما: تمجيد العاقل لله تبارك وتعالى وتمجيد غير العاقل لذاته جلّ وعلا. هذا ما تضمّنه الفصول والغايات بين دفتيه. على الرغم ممّا يقال عن معارضة المعري لسور القرآن الكريم بالفصول والغايات فإنّه لم يعارض القرآن أبداً وكيف هو يعارض الذكر وإنّه في مواضع عديدة من كتابه يدعو الناس إلى الزهد والصلاة والصوم والفعل الحسن وأيضاً إلى ذكر الله جلّ جلاله وتسييحه.

## المصادر والمراجع

- ١- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت، دار الثقافة، دون التاريخ.
- ٢- أحمد، بدوي أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الأولى، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٤ م.
- ٣- النفتازاني، سعدالدين، مختصر المعاني، الطبعة الأولى، قم، دارالفكر، مطبعة القدس، ١٤١١هـ.
- ٤- الجرجاني، الشيخ الإمام عبدالقاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، الطبعة الثالثة، بيروت، المكتبة العصرية صيدا، ٢٠٠١ م.
- ٥- جمع من المؤلفين، تعريف القدماء بأبي العلاء، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ م.
- ٦- الجندي، محمدسليم، الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، تعليق وإشراف عبدالهادي هاشم، الطبعة الثانية، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢ م.
- ٧- حسين، طه، گفت و شنود فلسفي در زندان أبو العلاء معري، ترجمه حسين خديوجم، چاپ اول، تهران، انتشارات زوار، ١٣٤٤ هـ.ش.
- ٨- حسين، طه، المجموعة الكاملة تقسم مع أبي العلاء في سجنه، المجلد العاشر، دون التاريخ.
- ٩- الحمصي، محمد حسن، القرآن الكريم مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، ط١، ١٩٩٩.
- ١٠- ضيف، شوقي، تأريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الطبعة الثانية، الشام، القاهرة، دار المعارف، دون التاريخ.
- ١١- ضيف، شوقي، الفن و مذاهبه في النثر العربي، الطبعة الثامنة، دارالمعارف، مصر، د.ت.
- ١٢- العشماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، دون تاريخ.
- ١٣- گروهی از نویسندگان، دائرة المعارف بزرگ اسلامي، چاپ اول، مركز دائرة المعارف بزرگ اسلامي، تهران، ١٣٧٣ هـ . ش.

- ١٤- المعري، ابوالعلاء، ديوان لزوم ما لايلزم، تحقيق و تعليق عمر الطّباع، بيروت، شركة دار الارقم، دون تاريخ.
- ١٥- المعري، ابوالعلاء، الفصول والغايات، تحقيق محمود حسن زناتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- ١٦- الميمني الراجكوتي الأثري الهندي، عبدالعزيز، أبوالعلاء وما إليه، بيروت، دارالكتب العلمية، دون تاريخ.

